من الأعراس الإسلامية المشهورة

زواج قطر الندى الطولونية بالخليفة المعتضد بالله

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت الدولة الطولونية أولى الدول الاسلامية المستقلة بمصر ، وكانت أقصرها حياة ، ولكنها لم تكن أقلها قوة وبهاء ، فهي لم تعمر سوى سبعة وثلاثين عاماً (٢٥٤ — ٢٩٢) ، ولكنها سطعت خلال حياتها القصيرة كما تسطع الدول العظيمة . ثم انهارت فجأة كأنها صرح أسس على الرمال ، ذلك لأنها كانت تدين بوجودها وقوتها لمؤسسها العظيم أحمد بن طولون ؛ فلما توفى أحمد فى سنة ٢٧٠ هـ ، وخلفه ولده خمارويه ، لبثت الدولة مدى حين تحتفظ بلونها الزاهر ؛ ولكن عوامل الانحلال السريع كانت تعمل لتقويض دعائمها التى لم تكن قد رسخت بعد . وكان خمارويه أميراً مترفاً ينثر حوله ما استطاع من ألوان الفخامة والبهاء ، فعنى بتوسيع القطائع(١) وتجميلها عناية فائقة ، وزاد فى قصر أبيه زيادات كبيرة ، وأنشأ له قصراً خاصاً بذل فيه من صنوف البهاء والبذخ آيات عجيبة ، وجعل فيه بركة من الزئبق الخالص ، وديواناً ملوكياً أنشأ عليه قبة عظيمة ، وداراً للسباع ، ومسارح للطيور وغيرها . وكانت هذه الألوان الزاهرة تسبغ على الدولة الطولونية مظهراً بارزاً من القوة والعظمة ، ولكن النضال المستمر الذى اضطرت إلى خوضه كان يستغرق قواها ومواردها ، ويعرضها لتلك الزعازع والمفاجآت التى تنذر الدول الناشئة بالفناء الكامل

وكانت الدولة الطولونية تستظل منذ قيامها بلواء الخلافة الاسمى ؛ ولم يشأ مؤسسها النابه أن يخرج على هذه السلطة الروحية التى يستمد منها شرعية حكمه واستقلاله . وحذا ولده خمارويه حذوه ، فدعا للمعتمد العباسى ، ثم دعا من بعده للمعتضد . على أن هذا الاستظلال الاسمى بلواء الخلافة لم يحل دون تعرض الدولة الطولونية لهجمات عمال الخلافة وأوليائها الآخرين . واضطر خمارويه ، كما اضطر أبوه من قبل أن يخوض غمار معارك دفاعية متصلة ؛ ولما ولى المعتضد الخلافة فى أواخر سنة ٢٧٩ هـ ، بعث إليه خمارويه بالهدايا الملوكية المعتادة ، فبعث إليه المعتضد بكتاب الولاية والخلع التقليدية ، وانتظمت العلائق الودية بين الخلافة والدولة المصرية ، بشروط وعهود معينة . ورأى خمارويه من جهة أخرى أن يوثق هذه العلائق بمشروع مصاهرة اقترحه على الخليفة ، وهو أن يزوج ابنته أسماء الملقبة بقطر الندى لولده وولى عهده المكتفى بالله ؛ فوافقه المعتضد على هذا المشروع على أن يتزوج هو قطر الندى . واغتبط خمارويه بعقد هذه الصلة الوثيقة بينه وبين الخلافة ، وبعث الخليفة مندوبه وصديقه الحسن بن عبد الله الجوهرى المعروف بابن الجصاص إلى مصر ليتولى إحضار العروس إلى بغداد ، وليشرف من قبله على أهبات القران الخلافى .

* * *

وكان زواج المعتضد بقطر الندى من أعظم الحوادث الاجتماعية فى التاريخ الاسلامى ، وكانت هذه الأميرة المصرية النابهة من أجمل نساء عصرها وأكملهن فى العقل والخلال ؛ وكانت وقت خطبتها صبية فى نحو الخامسة عشرة ؛ وكان أبوها خمارويه يعبدها حباً ؛ فلما وقع الاتفاق على زواجها من المعتضد أحيط عقدها وزفافها بأروع ما يتصور الانسان من مظاهر الفخامة والبهاء . وكان صداقها ألف ألف درهم ، ولكن خمارويه أنفق فى تجهيزها أضعاف هذا القدر . وكان جهازها مضرب الأمثال فى البذخ الطائل الذى تكاد تحسبه من مناظر ألف ليلة وليلة . وقد نقلت إلينا الرواية بعض تفاصيل مدهشة عن جهاز قطر الندى وزفافها ؛ فذكرت لنا أن خمارويه قدم لابنته فيما قدم دكة أربع قطع من ذهب وعليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا تقدر ، ومائة هون من ذهب ؛ ومن الحلى والثياب روائع يعجز عنها الوصف ، حتى قيل إن من بينها ألف تكة من الحرير قيمة الواحدة منها عشرة دنانير ؛ وهى واقعة ينوه بها المقريزى ويتخذها دليلا على بذخ هذا العصر الطائل ، ويقول لنا إن أسواق القاهرة فى عصره أعنى فى أوائل القرن التاسع كانت تعجز عن أن تقدم تكة واحدة بهذه القيمة ؛ ويقول لنا القضاعى إن ابن الجصاص ، وقد تولى

(١) القطائع عاصمة الدولة الطولونية ، وكانت تقع فى شمال شرق الفسطاط فيما بين جامع ابن طولون وجبل المقطم

إعداد الجهاز والاشراف على النفقة تحقيقاً لرغبة خمارويه ، حينما قدم إليه ثبت النفقة ذكر له أنه لم يبق منها للتسوية سوى « كسر » قدره [illegible] بعمائة ألف دينار ، وإذن فما بالك بالنفقة كلها إذا كان هذا كسـ[illegible] ا منها فقط !(١)

وفى أواخر سنة ٢٨١ هـ ، تم تجهيز قطر الندى ، واتخذت الأهبة لارسالها إلى الخليفة . وهنا أيضاً يجب أن نرجع الذهن إلى قصص ألف ليلة وليلة ، لكى نتصور ما أحيطت به رحلتها من مصر إلى بغداد من مظاهر النعماء والفخامة والترف . فقد شاء خمارويه أن يجعل لابنته من تلك الرحلة الشاقة نزهة بديعة ، فأمر أن يقام على طول الطريق من مصر إلى الشام ثم إلى بغداد فى نهاية كل مرحلة منزل وثير تنزل فيه قطر الندى وحاشيتها ، وتتمتع فيه بجميع وسائل الراحة . وأنفقت فى هذه الرحلة مبالغ طائلة ؛ وخرجت قطر الندى من القطائع فى ركب ملكى عظيم يشرف عليه ابن الجصاص مندوب الخليفة وجماعة من الأعيان ، ومعها عمها شيبان بن أحمد بن طولون ؛ وصحبتها عمتها العباسة إلى آخر حدود مصر من جهة الشام ؛ « وكانوا يسيرون بها سير الطفل فى المهد ، فاذا وافت المنزل وجدت قصراً قد فرش ، فيه جميع ما يحتاج إليه ، وعلقت فيه الستور ، وأعد فيه كل مايصلح لمثلها فى حال الاقامة ، فكانت فى مسيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة كأنها فى قصر أبيها تنتقل من مجلس إلى مجلس »(٢)

ووصل ركب قطر الندى إلى بغداد فى فاتحة المحرم سنة ٢٨٢هـ فأنزلت فى دار صاعد . وكان المعتضد غائباً بالموصل ؛ فلما علم بقدومها عاد إلى بغداد ، وزفت إليه فى الخامس من شهر ربيع الأول في حفلات عظيمة باذخة أسبغت على بغداد مدى أيام حللا ساطعة من البهاء والبهجة . وسحرت قطر الندى الخليفة بجمالها وخلالها البارعة ، وتفوقت فى حظوتها لديه على سائر حظاياه . ومما يروى أن المعتضد خلا بها ذات يوم فى مجلس أنس ، فلما ثقل رأسه من الشراب وضع رأسه على حجرها ، فلما استغرق فى النوم ، وضعت رأسه على وسادة وغادرت المجلس ؛ فلما استيقظ ولم يجدها استشاط غضباً وناداها وعنفها على تصرفها ، فأجابته : « يا أمير المؤمنين ماجهلت قدر ما أنعمت به على ، ولكن فيما أدبنى به أبى أن قال : لاتنامى مع الجلوس ، ولا تجلسى مع النيام(٣) »

محمد عبد الله عنان

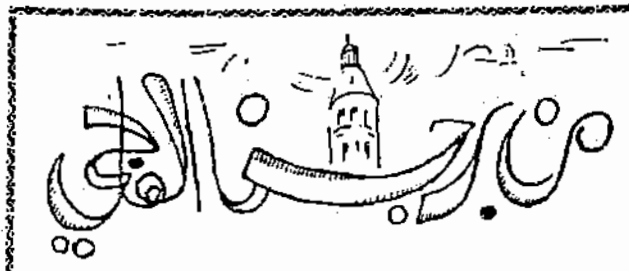

(١) المقريزى فى الخطط (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ١١٢
(٢) المقريزى فى الخطط ج ٢ ص ١١٣ (٣) ابن خلكان ج ١ ص ٢١٨

« كل شيء يزدهر فى مملكة تمتزج فيها مصلحة الشعب بمصلحة الملك » تلك كلمة قالها « لابروبير » فى كتابه « الأخلاق » تقابلها كلمة أخرى في كتاب للهند عن رجل دخل على مليكه فقال له : « أيها الملك إن بقاءنا موصول ببقائك ، وأنفسنا متعلقة بنفسك .. »

وضعتنى هذه الأقوال لحظة موضع التأمل وقلت فى نفسى إن هذه النظرة إلى « الملك » لا يمكن أن تكون وليدة الأوضاع الاجتماعية وحدها أو المبادىء السياسية أو العقائد الدينية . فالشرق والغرب لا يتفقان هكذا إلا على شيء يخرج من نبع طبيعتنا الانسانية . إن الشعوب منذ فجر حياتها كانت دائماً ترى الأمة هى الجسم والملك هو « الرأس » بمعناها الطبيعى « الفسيولوجى » . هذا صحيح لاريب فيه ، والملك هو الحاكم المطلق فى نظام الملوكية المطلقة . أما والأمة فى النظم الديمقراطية هى التى تتولى الحكم فمن الحق أن نتساءل عن صحة تلك النظرة القديمة . قليل من التأمل يهدينا إلى هذه النتيجة : إن الأمم فى شبابها كالفتى ، تستهوى عقله كل مظاهر القوة ، وتسيطر على رأسه كل أحلام الفتوة ؛ فهى تجمع كل السلطة لتعطيها ذلك الحاكم المطلق الذى يدير كيانها ويحرك جسمها ويهز عضلاتها ، إلى أن تمضى أيام الصبا وفورة الشباب وتدخل الأمة فى طور الرجولة والاستقرار ، فتحزم أمورها المادية بنفسها ، وتترك مليكها يشغل بما يشغل به الرأس الحقيق من شئون الفكر ومسائل الثقافة . وهنا نرى الملك فى الشعوب الديمقراطية قد انصرف عن وظيفة الحكم المادى إلى وظيفة أخرى تشبه وظيفة الرأس فى جسم الانسان المفكر ، فينقطع هو إلى التوجيه الفكرى لأمته وتشجيع العلوم والآداب والفنون ، وختم كل مظاهر النشاط الأدبى والمادى فى الدولة بطابع الحضارة . فالملك فى كل زمان ومكان هو الرأس دائماً ؛ على أنه فى الأمة الفتية رأس فتى ، وفى الأمة العريقة رأس رجل .

توفيق الحكيم